خطبة صلاة الجمعة 8/ 11/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(بدء الدعوة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 45 – 48].

روى الإمام البخاري عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: «لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة. فقال: أجل، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45]، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً».

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب 21].

أيها الإخوة:

بمناسبة دخول شهر ربيع الأول؛ شهرِ ولادة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ستكون خطبُ الربيعين حديثاً عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعرض لكم فيها مختارات من السيرة العطرة وأقطِف من دروسها ما نحتاجه ليومنا وغدنا؛ لنزداد له صلى الله عليه وسلم محبة، ولنجتهد به اقتداء ولنكثر عليه صلاة، صلوات ربي وسلامه عليه.

عنوان سلسلة ربيع: علمتني السيرة النبوية.

كان عنوان خطبة الأسبوع الماضي: بدء الوحي، وعنوان خطبة اليوم: **بدء الدعوة**.

أيها الإخوة:

منذ أن تلقّى النبي صلى الله عليه وسلم أمر ربه ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: 1، 2] قام من فوره يدعو الناس إلى التوحيد والأخذِ بتعاليم الدين الذي أرسله الله به، ولكنه كان يدعو إلى ذلك سرّاً لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم عليه، فلم يكن عليه الصلاة والسلام يظهر الدّعوة في المجالس العمومية لقريش، بل كان يعرض الإسلام على ألصق الناس به من أهله وأصدقائه ويعرضه على من يتوسم فيه خيراً ممن يعرفهم بحب الحق والخير ويعرفونه بالصدق والصلاح.

فكان في أوائل من أسلم: خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ورقية وأم كلثوم بنتا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وأبو بكر بن أبي قحافة، وأسماء بنت أبي بكر والزّبير بن العوام، وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص.. وغيرهم، رضي الله عنهم جميعاً، فكانوا يلتقون بالنّبي صلّى الله عليه وسلم سرّاً للإرشاد والتعليم، واختار لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم دار أحدهم، وهو الأرقم بن أبي الأرقم، وكانت على الصفا بمعزل عن أعين قريش ومجالسها.

وكان في أوائل ما نزل الأمر بالصلاة فقد روى أحمد في مسنده عن زيد بن حارثة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل عليه السلام أتاه في أول ما أوحي إليه فعلمه الوضوء والصلاة.

وجاء في تاريخ الطبري عن مقاتل بن سليمان قال: فرض الله في أول الإسلام الصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعَشي، ثم فرض الخمس ليلة المعراج.

وكان أحدهم إذا أراد الصلاة ذهب إلى شعاب مكة يستخفي فيها عن أنظار قريش.

ولما زاد عدد المؤمنين بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم أمر الله نبيه بالجهر بالدعوة.

أيها الإخوة:

فيما سبق من حديث بدء الدعوة دروس وفوائد يحتاجها كلٌّ منا، وقد علمتني السيرة النبوية فيها أمرين:

أولهما: الأسرة الفاضلة والصحبة المباركة منطلقا الدعوة الإسلامية.

ثانيهما: الصلاة خير معين على أمر الدنيا والدين.

أولاً: الأسرة الفاضلة والصحبة المباركة منطلقا الدعوة الإسلامية:

أيها الإخوة:

انتشر الإسلام أولاً في نطاق الأسرة، فبيتُ النبوة نموذج لذلك، فقد أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجتُه خديجة وبنتاه رقية وأم كلثوم ومولاه زيد وحاضنته بركة أم أيمن وابن عمه علي وكان قد ضمه إلى ولده.

قال ابن إسحاق: (وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله، وصدق بما جاء منه. فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تُثبّته وتخفّف عليه، وتصدّقه وتهوّن عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى).

وبيت سيدنا أبي بكر نموذج آخر، فقد أسلم مع إسلام أبي بكر زوجتُه أم رومان بنت عامر وابنته أسماء وزوجها الزبير، وأم كلثوم وزوجها طلحة بن عبيد الله، ولم يسلم أولاده الذكور إلى ما بعد الهجرة كما لم يسلم أبوه عثمان إلا عام الفتح، بينما أسلمتْ أمُّه سلمى أم الخير في دار الأرقم.

وقل مثل هاتين الأسرتين الكريمتين عددٌ جيد من الأسر التي تكامل فيها الإسلام، فقد بلغ عدد الأسر المهاجرة إلى الحبشة مع المهاجرين ثمانية عشر أسرة، وقد أُغلقت دُورٌ بكاملها بمكة عند الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة في دليل واضح أنّ الأسرة كلها اتبعت دعوة الحق.

فالزوجة الفاضلة والزوج الموفق والأبناء البررة والأرحام الكرام منطلق الدعوة الإسلامية الأول، وأولى الناس بمعروفك أسرتُك، وأنت مسؤول عن دعوتهم إلى الخير وتعليمِهم أمورَ دينهم وإرشادِهم إلى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6]، قال سيدنا علي: قوا أهليكم ناراً: علموهم وأدبوهم، وقال الحسن: يأمرهم وينهاهم فيعلمهم الحلال والحرام ويجنبهم المعاصي والآثام إلى غير ذلك من الأحكام.

قال مقاتل والضحاك: (حق على المسلم أن يعلم أهله ما فرض الله عليهم وما نهاهم عنه).

رحم الله رجلاً قال يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم، لعل الله يجمعهم معه في الجنة.

وأذكر أنني عقدت على منبر الجمعة يوماً سلسلةَ خطب عن الأسرة والتربية وسلسلتين عن تربية الأبناء، يمكن لكل أخ وأخت الرجوعُ إليها لنفيد جميعاً في إيصال الخير إلى أهلينا، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم» [البخاري]، فمن لم يستطع أن يعلّمهم فليأخذ بيدهم ليكونوا معه في مجالس العلم والتربية؛ لتكون أُسرنا قرةَ عين لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وللبلاد والعباد، فالأسرة الفاضلة هي المنطلق الأول للدعوة الإسلامية.

ثم الصاحب المبارك هو المنطلق الثاني، فبعد أن بلّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة لأسرته مضى إلى صاحبه أبي بكر فكانت هذه الصحبة سببَ رفعة في الدارين ما بعدها رفعة، وبعد أن بلّغ أبو بكر الدعوة لأهله مضى إلى أصحابه ليدعوهم للخير فكانت البركة له ولهم في الدارين وكان منهم مبشَّرين بالجنة.

وهكذا كان كل صحابي يدعو إلى الخير أصحابه وأصدقاءه بعد أن يدعو أهله وأرحامه، فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا ووصلته رسالة الإسلام، أسلم منهم من أسلم وبقي على دينه من بقي. ولكن الصحابة نالوا شرف التبليغ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

والمأمول من كل مسلم اليوم أن يحمل همَّ الرسالة التي حملها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يوصلها على أقل تقدير إلى أهله وأرحامه وإلى صحبه وأصدقائه، لنكون متبعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم محتفلين به متمسكين بسنته.

ثانياً: الصلاة خير معين على أمر الدنيا والدين:

فقد سمعتم أيها الإخوة أنّ الصلاة فُرضت أول الإسلام، صلاة بالصباح وصلاة بالمساء، ثم فُرضت خمساً ليلة الإسراء، وفي فريضتها في فترة مبكرة دليل على أنها أهم ركن بعد التوحيد، فالصلاة صلة بين العبد وربه، والصلاة نور والصلاة معراج المؤمن، والصلاة عماد الإيمان، والصلاة ميزان، والصلاة قربان، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**أرأيتم لو أنَّ نهراً بباب أحدِكم يغتَسِلُ فيه كلَّ يوم خمس مرات، ما تقولون ذلك يُبقي من درنِه؟ قالوا: لا يُبقي من دَرَنهِ شيئاً، قال: فذلك مَثَل الصلوات الخمسِ يمحو الله بها الخطايا**».

ألا فليعلم كلُّ مسلم عامةً وليعلم الدعاةُ إلى الله تعالى خاصة أن الصلاة خير معين على أمر الدنيا والآخرة، وأن دعوةً لا تبدأ بالصلة بالله تعالى لا تستمر، وأن داعياً لا يقوم بين يدي الله تعالى بالليل والنهار ضارعاً لا يؤثر.

اللهم إني أعوذ بك أن أقرّب الناس منك وأنا عنك بعيد، وأن أصلهم بك وأنا عنك مقطوع، وأن أذكرهم بك وأنا عنك غافل.

وبعد أيها الإخوة:

هذا شيء من فوائد حديث بدء الدعوة، علمتنا السيرة النبوية من خلاله أنّ الأسرة الفاضلة والصحبة المباركة منطلقا الدعوة الإسلامية، فليمضِ كل منا إلى اهله وأصحابه داعياً إلى الخير آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وعلمتنا السيرة النبوية أن الصلاة خير معين على أمر الدنيا والدين، فمن حزبه أمر فليفزع إلى الصلاة ومن أراد الثبات على طريق الدعوة فليقوِّ صلته بالله تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب 56].

والحمد لله رب العالمين